مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد– مجلة علمية محكمة– إبريل ٢٠٢٣

# السخرية في خطاب محمود شاكر المناهض للهيمنة الاستشراقية

**د/ عبد العزيز بن محمد بن هديب آل عبد الله**(*)

## ملخص البحث:

يندرج هذا البحث بوجه عام تحت لواء الدراسات البلاغية، ويتجه في إطاره التخصصي لدراسة السخرية بوصفها أداة بلاغية وتعبيرية ذات قصد للتأثير، وذلك في إطار التطبيق على نماذج من جمهرة مقالات الشيخ محمود محمد شاكر (أبي فهر) كنماذج لسخريةٍ مقاوِمة، تُناهض الهيمنة الثقافية للمستشرقين.

ويهدف البحث إلى تجلية وإيضاح الكيفية التي يُسخّر بها الشيخ شاكر أدوات التعبير العربي التقليدي في أداء وظيفة رمزية مضادة للمركزية الاستشراقية وهيمنة الثقافة الغربية.

وقد انتخب البحث المنهج الوصفي منهجا له في المعالجة والتحليل الكيفي للمقالات مستعينا بالعديد من الأطر المفهومية المستمدة من البلاغة الحديثة، ونظرية الخطاب وغيرها

وقد توصل البحث للعديد من النتائج من أبرزها: كون السخرية في مقالات الشيخ شاكر ممارسة واعية، يُوظّف فيها أدوات البيان العربي في مواجهة سلطة رمزية ممثلة للهيمنة المعرفية الغربية وهم المستشرقون.

**الكلمات المفتاحية:** البلاغية، السخرية، الشيخ شاكر، الهيمنة، الاستشراق.

**Abstract:**

This research falls generally under the umbrella of rhetorical studies. Within its specialized framework, it studies irony as a rhetorical and expressive tool intended to influence. This is done through applying examples from the collection of articles by Sheikh Mahmoud Muhammad Shaker (Abu Faher) as models of resistant irony, challenging the cultural hegemony of Orientalists.

The research aims to clarify and illustrate how Sheikh Shaker harnesses traditional Arabic expression tools to perform a symbolic function that counters Orientalist centrality and the hegemony of Western culture.

The research adopted the descriptive approach as its method for qualitative analysis, drawing on numerous conceptual frameworks derived from modern rhetoric, discourse theory, and other disciplines.

The research reached several conclusions, the most prominent of which is that irony in Sheikh Shaker's articles is a conscious practice, employing Arabic rhetorical tools to confront a symbolic authority representing Western cognitive hegemony, namely the Orientalists.

Keywords: rhetoric - irony - Sheikh Shaker - hegemony - Orientalism

(*) الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية– كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة الملك سعود– المملكة العربية السعودية

## مقدمة

تعتمد هذه الورقة البحثية على تحليل كيفي لنماذج من جمهرة مقالات محمود محمد شاكر (أبي فهر)، بوصفها مقالات أدبية ذات حمولة بلاغية وأيديولوجية، وتقرؤها على أنها نماذج لسخريةٍ مقاوِمة تُناهض الهيمنة الثقافية للمستشرقين. وقد استعانت الورقة على ذلك بأطر مفهومية مستمدة من البلاغة الحديثة، ونظرية الخطاب، وأطروحة غرامشي عن الهيمنة والمثقف العضوي؛ بهدف الكشف عن الكيفية التي يُسخّر بها شاكر أدوات التعبير العربي التقليدي في أداء وظيفة رمزية مضادة للمركزية الاستشراقية.

ولم أر فيما قرأت – من تطرق إلى هذا الموضوع لدى محمود شاكر أو تناوله في بحث أو مقاله.

**مدخل:**

### ١. السخرية لغويًا

قال ابن فارس: "سخر: السين والخاء والراء أصل مطّرد مستقيم، يدلّ على احتقارٍ واستذلال، من ذلك قولنا: سخّر الله عزّ وجلّ الشيء، وذلك إذا ذلّله لأمره وإرادته. قال الله جلّ ثناؤه: (وسخّر لكمْ ما في السموات وما في الأرض)؛ ويقال: رجُلٌ سُخْرة، يسَخَّر في العمل، وسُخْرة أيضًا إذا كان يُسخر منه، فإن كان هو يفعل ذلك قلتَ: سُخَرة، بفتح الخاء والراء، ويقال: سفُنٌ سواخرُ مواخِر؛ فالسواخر: المطيعة الطيّبة الريح، والمواخر: التي تمخر الماء، تشقّه. ومن الباب: سخرتَ منه، إذا هزئتَ به، ولا يزالون يقولون: سخرتُ به، وفي كتاب الله: (فإنّا نسخرُ منكم كما تسخرون)"(١).

إن المفهوم اللغوي للسخرية في أدبيات المعاجم العربية يكشف عن طلب لهيمنة رمزيّة ما، أو لمقاومتها، والسخرية بهذا، حتى بالمعنى المعجمي، قابلة لأن تُفهم في سياق هتك رمزية الخصم أو تفكيك بنيته المتعالية.

### ٢. السخرية بوصفها نوعًا أدبيًا

يرى بعض الباحثين أن التعامل مع مفهوم "السخرية" في الأدب يظل محفوفًا بالإشكالات. وقد عبّر د. س. ميوك عن ذلك بقوله:

"لأسباب مختلفة بقي مفهوم السخرية غير مستقر ومطاطًا وغامضًا، فهو لا يعني اليوم ما كان يعنيه في القرون السالفة. ولا يعني الشيء نفسه من بلد إلى بلد، وهو في الشارع غيره في المكتبة، وغيره عند المؤرخ والناقد الأدبي؛ فيمكن أن يتفق ناقدان أدبيان اتفاقًا كاملًا في تقديرهما لعمل أدبي، غير أن أحدهما يدعوه عملًا ساخرًا، في حين يدعوه الثاني هجائيًا، وآخر هزليًا أو فكاهيًا أو مفارقًا..." إلخ(٢).

ومهما يكن من أمر، فالأدب الساخر يُصنَّف في عدد من المراجع ضمن "أدب القبح"، أو الأدب الهزلي، أو الهجاء، أو التهكم والمعارضة. وهو بمحصّلته يهدف إلى إحداث صدمة مفاجئة تولّد البلبلة والتشويش، بحيث يتحول الشيء المألوف تحت وطأتها إلى غريب مزعج. ولا شك أن مثل هذا التأثير، ووفق هذا التصور، يأتي نتيجة لسِمة القبح الأساسية، التي تتكشف عندما يفضح الكاتب تجاوُر الأضداد والمتناقضات في الزمان والمكان، أو في الخطاب.

ومن أجل هذا يرى بعض الباحثين أن لهذا النوع من الكتابة (أي السخرية) ارتباطًا وثيقًا بفن الكوميديا وما يتفرع عنه، كالهجاء والمعارضة وفن التهكم. وهم يربطونه بأدب العبث، والتصوير المريع، والمشاهد الغرائبية، والكاريكاتير، والمفارقة الساخرة. وهذا التصور له ارتباط واضح بالمفهوم الذي ندرسه في مقالات محمود محمد شاكر، مع ملاحظة أن السخرية قد تظهر في مقالة ساخرة بكاملها، وأحيانًا تظهر كأسلوب أو سلاح رمزي داخل مقالة تمزج بين روح الجدية والمفارقة الساخرة. والذي يراه الباحث هو أن هذا كله يندرج تحت مفهوم السخرية في مقالات محمود شاكر (٣).

### ٣. السخرية في تصور روبرت فديان

يرى روبرت فديان أن السخرية ليست نوعًا من الأدب فحسب، بل نمط بلاغي يظهر داخل أنواع عدة من النصوص، ويجب ألا يُحتكر ضمن إطار بعينه، بل يشمل دراسات الأدب، وتحليل الخطاب، والبلاغة، وعلم النفس الاجتماعي.

وينتقد فديان النظرية الأدبية التقليدية التي تتعامل مع السخرية كأنها قالب ثابت، ويرى أن نموذجها أخفق في تفسير السخرية في الكاريكاتير، والتلفزيون، والمقالات الصحافية الساخرة. وهذه الأخيرة هي ما يعنينا، أي المقالات الساخرة، أو السخرية في المقالات، بوصفها نوعًا أدبيًا لدى محمود محمد شاكر بقصد مقاومة هيمنة المستشرقين المعرفية والثقافية.

ومن المهم في هذا السياق أن يُشار إلى أن فديان يهاجم اتجاه "موت المؤلف" من جهة كونه يعطل فهم السخرية، التي تفترض نية مقصودة؛ فهو يرى أن السخرية تتطلب دائمًا شعورًا بوجود مؤلفٍ ساخر له قصد ما، حتى لو اختلفت التأويلات.

ثم يقترح فديان تحليل السخرية اعتمادًا على دراسة الأثر العاطفي والأيديولوجي على الجمهور، وفهمها بوصفها سلاحًا رمزيًا، وليس فنًا أدبيًا فحسب. وأخيرًا، يَقترح منح نيّة الساخر وقصده قيمة معتبرة، والاعتراف بدور جمهور السخرية في تفعيل المعنى(٤).

إذن، فالسخرية – في هذه الورقة – نمط تعبيري يشتغل ضمن حقول عدّة، وهي ممارسة بلاغية ذات قصد تواصلي، وليست إبداعًا مجردًا من ذلك. والسخرية، وفق هذا التصور، عند شاكر، تُعد

نمطًا تعبيريًا مقاومًا للهيمنة الاستشراقية وما دار في فلكها، واستراتيجية بلاغية تُوظّف في المقالة الأدبية الناقدة؛ بهدف إثارة استجابة عاطفية وفكرية ذكية لدى جمهور ما، إزاء مسألة ذات طابع عام (أو على الأقل مشترك بين ذوات القراء).

**٤. سخرية شاكر بوصفها أداة مقاومة للهيمنة الثقافية**

إذا كانت السخرية أداة بلاغية ذات قصد للتأثير، فإنها بذلك أداة تعبيرية مقاوِمة في مقالات شاكر، وهذا يجعلها مندرجة ضمن الممارسات المضادة للهيمنة الثقافية الغربية، وفق مفهوم موسّع لأطروحة أنطونيو غرامشي. وبدمج المفهومين، نرى أن السخرية عند شاكر هي خطاب تعبئة رمزية ضد نسق قيمي مهيمن.

وهذا النسق القيمي لا يُمارَس بالقوة المباشرة، بل يُكرَّس عبر القبول الضمني من الضحايا، من خلال نشر قيم الطبقة التي تضطهدهم، وهي قيم تُنتَج ويعاد إنتاجها عبر التعليم، والإعلام، والأدب، والدين.

ففديان يرى أن السخرية أداة تفكيك رمزية، وغرامشي يرى أن مقاومة الهيمنة لا تكون إلا بخطاب رمزي مضاد لها. وبهذا فإن سخرية شاكر من المستشرقين ومن دار في فلَكهم تُعد سلاحًا رمزيًا ضد سلطة معرفية تحاول إنتاج تصور مغلوط عن اللغة والثقافة والتاريخ العربي، من خلال هيمنة ثقافية غير مباشرة، تصدر عن طبقة معينة تتظاهر بالموضوعية والحياد العلمي، وتمارس قوة جذب معرفي تنتهي إلى إخضاع مثقفي الطبقات الاجتماعية الأخرى (٥).

**٥. شاكر مثقفًا عضويًا**

وفي هذا السياق، وضمن تصور قريب من أدبيات غرامشي، يمكننا استعارة مفهوم الصراع بين طبقتين اقتصاديتين في المجتمعات الغربية ونقله إلى صراع بين طبقتين ثقافيتين مجتمعيتين في عالمنا العربي، إحداهما طبقة "مهيمِنة" غالبة، ترسّخ الاستشراق ومفاهيمه وتصوراته عن العالم العربي والإسلامي وتراثه وثقافته، وأخرى "مقاوِمة"، ترفض هذه الهيمنة وتُفككها بوسائلها الرمزية المختلفة، ومن بينها السخرية المقالية.

وبهذا المنظور، يمكن أن يُعد محمود محمد شاكر مثقفًا عضويًا، أي ذلك المثقف الذي ينتمي إلى طبقة اجتماعية وثقافية محددة، ويندمج في الصراع الثقافي من أجل إعادة إنتاج رؤية طبقته للعالم والواقع، ليس عبر التنظير فحسب، بل من خلال التأثير في الوعي الجمعي، من طريق التأليف، والتحقيق، وكتابة المقالات الناقدة.

وهو، بهذه الصورة، مختلف تماماً عن المثقف التقليدي المعزول، الذي يكتب مقالات إلهاء أو تسلية، أو تلك المقالات الغائبة عن الهمّ الثقافي للمجتمع، وهويته، وطبقاته. فالمثقف العضوي، بخلاف ذلك، يمارس تأثيراً عملياً مباشراً في الأوساط الثقافية والمعرفية لمجتمعه(٦).

**نماذج من "سخرية مقاومة المستشرقين" لدى شاكر**

١. يقول شاكر: "**فإن المستشرقينَ لم يذهبوا هذا المذهب، ولم يقفوا هذا الموقف من اختلاف النُّسخ، إلا لعجزهم عن ترجيح بعض الكلام العربيّ على بعض، وذلك لعِلَل بيّنة: أولها جهلهم بالعربية على التمام، فإن تمامَ العربية هو السليقة التي لا تكتسب، كما أن تمام الإنجليزية والفرنسية هو السليقةُ والنشأة والاندماج في الوسط الإنجليزي أو الفرنسي من بدءِ المولد والحضانة، والثاني أنه قَلَّما يوجد فيهم المتخصص في فقه علم بعينه حتى يكونَ حجّة فيه، اللَّهمَ إلَّا أن تكونَ الحجة – عندهم– في جمع نصوص كثيرة في موضوع واحد من كتب شتى، ولكنهم لا يدّعون أبداً أنهم أصحاب رأي في البيان والتأويل والترجيح**".

تتجلى السخرية في النموذج (١)، في إطلاق مجموعة أوصاف، لا تستند إلى النزعة البحثية، بل إلى الوصف الساخر، مثل: "العجز" و"الجهل"، "قلة وجود متخصصين منهم في علم بعينه"، وأخيراً: إيراد احتمال ساخر بأن "الحجة" عند المستشرقين قد تكمن في "القدرة على جمع نصوص كثيرة في موضوع واحد من كتب شتى".

وقد استخدَمت السخرية المقاوِمة للهيمنة أسلوب التهكم الإخباري الواضح، ولم تستخدم أسلوب الإنشاء، ولا نزعت إلى المنهجية العلمية التي تستند على الإتيان بنماذج أو إحصاءات أو تحليلات، أو حتى استشهادات من مراجع بحثَت الموضوع (٧).

٢. يقول شاكر: "**وهذا أيضًا كتاب "الذخيرة" فإن الجهد الذي بذل في تصحيحه وضبطه على الأصول المخطوطة التي طُبع عنها وبيان اختلاف النسخ، قد أوفى على الغاية، وقلَّ من المستشرقين من يستطيع أن ينفذ إلى إجادة مثله في التحرير، ومع ذلك فقد وقع فيه بعض ما كان يمكن تجنبه، لولا أن الأساتذة المصححين قد تهاونوا في تحطيم أسلوب المستشرقين الأعاجم**".

تتجلى السخرية في موضعين من النص (٢) أعلاه، أحدهما وصفه المستشرقين بأنهم غير قادرين على تصحيح وضبط الأصول المخطوطة العربية، واستخدم عبارة: "قلّ من المستشرقين من يستطيع النفاذ إلى الإجادة"، وهذا استخدام لأسلوب بلاغي هو الاستعارة، إذ شبههم بمن يحول بينه وبين النفاذ إلى مراده حاجز أو حجاب من العجز والجهل. وأما

الموضع الآخر فهو استخدام "النعت" في سياق الذم، عندما وصفهم بـــ"الأعاجم"، ودليل ذلك أن وصف "المستشرق" يتضمن أنه أعجمي، لكنه زاد بذكر وصف "الأعاجم" تأكيداً للذم المتضمن تأكيد عجزهم وجهلهم بالعربية وتراثها (٨).

وكأنه هنا يستدعي أبا الطيب المتنبي وموقفه الحاد من العجمة والأعاجم وتكراره لهذا المعنى في شعره عندما أحس بانحسار ظل العرب وهيمنة العجم على مقاليد الأمور وكأننا نسمعه وهو يردد:

بها نبطيّ من أهل السوا  د يدرس أنساب أهل الفلا

٣. يقول شاكر: "**وليس كل المستشرقين ممن يصح الاعتماد عليهم في كل شيء، فقد طبعوا كثيرًا من الكتب (...) وأقل كتاب وأردؤه مما يطبع في مصر هو خير من مثل هذه الكتب. فلو أخذت مثلًا "كتاب الزُّهرة" لابن داود الظاهري، الذي طبعه الأستاذ "لويس نيكل" بمساعدة الأخ إبراهيم طوقان، لوجدت أكثره خطأً، بعد الذي بذله الأستاذ طوقان في الاستدراك عليه... ولو شئنا أن نضرب المثال بعد المثال على ذلك لضاق المكان عن إتمام ذلك**".

تتجلى السخرية في النموذج (٣)، في أنه وصف "أقل نموذج يُنتج في مصر" بأنه أفضل من جميع كتب المستشرقين، وهذه سخرية مبنية على المبالغة في الوصف، وهي معروفة في الهجائيات الساخرة في التراث العربي شعرًا ونثرًا، بيد أنه يُلاحَظ أن المقطع لا يخلو من إشكال، إذ إنه افتُتِح بعبارة توحي بأن عمَل المستشرقين لا يمكن أن يكون جيّدًا معتمداً في كل شيء؛ وهذا وصف يشترك فيه المستشرقون وغيرهم من الباحثين، وقد يضفي عليهم نوعًا من الإشادة أو الإطراء غير المقصود. وثمة موضع ساخر آخر من المقطع ورَد فيه مثال مضروب على رداءة كتب المستشرقين، وهو أن ما يُنشر لهم من كتب، على رغم تصحيحها من قِبل بعض المحررين العرب، فإنها تظل مليئة بالأخطاء (٩).

٤. يقول شاكر: "**ربما استخرجوا قولًا ضعيفًا فاسدًا ليس بشيء في تاريخ الإسلام والعربية، ثم يكتبون وقد اتخذوا هذا القول أصلًا ثم يجرون عليه سائر الأقوال ويؤولونها إليه، ثم يحشدون لذلك شُبهًا كثيرة مما يقع في تاريخ مهمل لم يمحص كالتاريخ الإسلامي، وكذلك يلبّسون على من لا يعلم تلبيسًا محكمًا لأنه حشْد وجمع، وتغرير بالجمع والاستقصاء الذي يزعمون**".

في النموذج (٤) سخرية صارخة من خطأ منهجي فادح لدى المستشرقين، وهو "التأصيل بناء على أصول في غاية الفساد"، ثم الاحتكام إليها وجعلها أصلًا، وتأويل كل ما يخالفها

وفقًا لذلك، ثم إيراد الشُبه وتكثيرها بطريقة التلبيس والحشد والجمع. وهذا الوصف وإن كان ساخراً فإنه كذلك ينبئ بما يعتقده شاكر لدى المستشرقين من أنهم يعملون بنيات سيئة، وليسوا مجرد باحثين يعانون من العجز والجهل، كما ورد في الأمثلة السابقة. ويتجلى الأسلوب الساخر في حشد ألفاظ مثل: "ضعيف"، و"فاسد"، و"ليس بشيء"، و"حشد"، و"جمع"، و"يلبّسون"، و"يزعمون". وهذه كلها ألفاظ ذات طبيعة ساخرة واضحة (١٠).

٥. يقول شاكر: "**وليس يستطيع مستشرق أن ينفذ في فهم التاريخ العربي، والاجتماع الإسلامي، والفلسفة الإسلامية، كما يستطيع كاتب قارئ مطلع كالأستاذ العقاد. ثم هو فوق ذلك أديب عربي يستطيع أن يجعل فطرته العربية الأدبية عونًا له على التغلغل في أسرار تاريخية مطموسة، لا يطيقها المستشرق لفقدانه مثل هذه الفطرة، ثم لأن البيئة العلمية والاجتماعية التي نشأ فيها وتثقف على أساسها لا تطاوعه أو تلين معه**".

السخرية في نموذج (٥) تتضح في الوصف بعدم الاستطاعة على النفاذ، وهذا وصف سبقت الإشارة إليه أعلاه، ويُضاف إليه "فقدان الفطرة"، ونعت بيئة المستشرق بأنها "لا تطاوعه" و"لا تلين معه"، فكأنه يلحق به عيبًا قدَريًّا وجذريًّا لا يستطيع الفكاك منه مهما حاول التخلص منه، وهذا أسلوب معروف في الهجائيات العربية التراثية (١١).

٦. يقول شاكر: "**ونقرأ أيضًا كتب المستشرقين الذين يجلّهم الدكتور طه ويرفع بذكرهم رفعًا شديدًا فماذا نجد؟ نجد غموضًا شديدًا كأننا نسير في ليلة مظلمة في بطن واد عميق، عن يمينه جبل شامخ وعن يساره جبل شامخ قد أطبقا عليه جميعًا. وإذا الردة في كتب القدماء أخبار مجموعة كما اتفق لهم أن يجمعوها، لم ينظر أحد في أسبابها، ولا في الحوافز التي أغرت العرب بها، ولا في أمر المرتدين وصفتهم وعلاقة بعضهم ببعض، ولا في وجه الشبه الذي يجمع بينهم قبل أن يرتدوا. وإذا الردة في كتب المحدثين أخبار أيضًا حاول أصحابها أن يرتبوها ما استطاعوا، فلما نظروا في أسبابها، وفي حوافزها، وفي صفة أهلها وفي علاقة بعضهم ببعض، وفي وجه الشبه الجامع بينهم قبل أن يرتدوا –إذا بهم يخلطون خلطًا شديدًا كأنهم يبحثون عن درة في بحر من الوحل. وإذا المستشرقون يملؤون كتبهم كعادتهم بالجهل الذي يضرب بعضه في وجوه بعض**".

النموذج (٦) يزخر بالسخرية المؤلمة للمستشرقين، فهو يصف كتبهم بالغموض، ويستعير من سورة البقرة وصف المسيرة العمياء في الظلماء، ويضرب المثال ببحوثهم في قضية تاريخية شائكة مثل "الردة وأسبابها"، وعندما يصف نتائج عملهم يختار لها نعتًا هو "الخلط الشديد"، ويستعير لعملية البحث الاستشراقي وصف "البحث عن درة في بحر من الوحل"،

ثم ينتج عن ذلك "ملء الكتب بالجهل الذي يضرب بعضه في وجوه بعض". وكل هذه صياغات ساخرة تميل إلى الوصف الكاريكاتيري، فكأننا نطّلع على رسم في صحيفة لمستشرق يبحث عن درة في بحر من الوحل، ثم يستخرج الوحل ويضرب به وجوه رفاقه الذين يشاركونه في البحث، فيبادلونه الأمر نفسه (١٢).

٧. يقول شاكر: "**ولن أضرب المثل بما يكتبه المستشرقون ومن لف لفهم؛ فهم كما نعلم. ولا بأهل الزيغ والضلال والضغينة على أهل الإسلام**».

في النموذج (٧)، يُلحق شاكر بالسخرية من المستشرقين "من لفّ لفّهم" ويجمعهم بـــ"أهل الزيغ والضلال". بيد أن السخرية تتّضح في استخدامه أسلوباً مجمَلًا غير مفصّل، ولكنه أسلوب بليغ في الذم وذلك في عبارته: "فهم كمَا نعلم"، وهو يشير بهذا إلى أن عيبهم من الوضوح بحيث يعلمه كل أحد، وبحيث لا يحتاج إلى مزيد من البيان أو التفصيل (١٣).

٨. يقول شاكر: "**وأنت -أيها الصديق- تأخذ بهذا الحزم، فتهرول إلى "لسان العرب"، و"أساس البلاغة" و"الألفاظ الكتابية" تحشد لي ما جاء فيها من مادة العربية في قولهم "زلزل" ولا تكتفي بهذا، بل تسعى إلى "الأغانى" (طبعة بولاق!) تقلب أوراقه، تستخرج تراجم المغنين وأصحاب الملاهي كإسماعيل بن جامع وإبراهيم ابن ميمون الموصلي - وغيرهما في دواوين العربية وأصولها- فتفلِّي ألفاظها وتجري عينيك وراء إصبعك على حروف الكلمات عساك تقع على جملة يكون فيها "زلزل" وما يخرج منها وما يتداعى إليها، ولا تكتفي أيضًا فتتناول من بين كتبك أحد فهارس القرآن الكريم -"وهو الحجة العليا في مثل هذه المشكلات" -كما قلت وإن لم تقل- فتجد اللفظ في آيات بينات منه. فتجمع ذلك كله في مقالك -أو ردِّك عليَّ- حشداً بارعًا عظيما تُضاهي به عمل "المستشرقين" الثقات الأثبات المتضلّعين المتقنين المجيدين! الذين لا يدعون للحرف مكانًا إلا نبشوه وتقصوه ورموا بعضه فوق بعض "أخذًا بحزم العبادي..." الذي عَرَفْت. وهو أسلوب فاسد عندنا لا يعول عليه في الحجة، وإنما هو أسلوب ضروري حسَن حين يراد منه المقارنة والتدبر لاستخراج المعاني من الألفاظ وبيان سرها من الحقيقة والمجاز ودقة التصوير للأغراض التي نصبت لها هذه الألفاظ**".

في نموذج (٨) يستخدم شاكر أسلوباً ساخراً مُسهِباً في وصف العملية التحشيدية والتجميعية غير المفيدة لدى المستشرقين، وكأنه يشبه عملهم بعمل "حاطب ليل" يجمع ما هبّ ودبّ دون ثمرة، ثم بعد ذلك يمدحهم مدحاً يراد به الذم وضد الأوصاف التي أطلقها عليهم: "الثقات الأثبات المتضلعين المتقنين المُجيدين"، ويستهزئ بهم في تصوير عملهم واستعارة "النبش" و"التقصي و"رمي بعضه فوق بعض"، وكل هذه العبارات صيغت بشكل ساخر سافر(١٤).

٩. يقول شاكر: "**الثالث: مخالفة نهجنا في ذلك لنهج علماء الفرنجة (المستشرقين). وجوابنا على الترتيب من تحت إلى فوق:**

**إننا أَدْرَى بأساليب هؤلاء الأعاجم –الذين اتخذوا العربية عملًا من أعمالهم– من أن نخالفهم في الجيّد من مذاهبهم، فتحرير النص ومراجعته على جميع النسخ التي ذكر فيها وما إلى ذلك، عملٌ ضروريٌ لكل باحث. ولكن هؤلاء الأعاجم تقعد بهم سلائقهم عن معرفة أسرار العربية، فلم يتجاوزوا الوقوف عند النص المكتوب، وذلك لعجزهم عن بيانها. فلما عرفوا ذلك من أنفسهم، كان من أمانتهم أن يتوقفوا، فلا يقطعون برأي في صواب أو خطأ. وهي أمانة مشكورة لهم.**

**ولكن العربيّ إذا أخذ بأسبابهم، فلابُدَّ له من أن يهتدى بعربيته إلى ما عجزوا عنه بأعجميتهم، فكذلك فعلنا في كلمة ابن شبرمة وقلنا "إنه نصٌ عربيٌ مُظلم النور". وبيان ذلك أنه ليس من قياس العربية أن يجمع "غبار" على "غبارات" ولا غيرها من الجموع".**

في النموذج (٩) يتوصل شاكر للرد على أحد منتقديه بالسخرية مما يعده المنتقِد خطأ منهجياً، فيجيبه شاكر ساخراً من "منهجية المستشرقين" ويستخدم في ذلك عبارات ساخرة واضحة مثل "الترتيب من تحت إلى فوق"، ويردد عبارة "الأعاجم" على سبيل الذم في وصفهم، ويصمهم بأن "سلائقهم تقعد بهم عن معرفة الأسرار العربية"، بأنهم "عاجزون عن بيانها"، ثم ينعى على ناقده أنه قبِل من المستشرقين وقوفهم عند ما لا يعلمونه، ورفض من شاكر أن يقول إنه لم يجد جمع كلمة "غبار" على "غبارات" في المصادر العربية (١٥).

وهو يأكد على ما ذكرناه سابقا من أنه ليس من العقل أن نجعل مناهج هؤلاء (الأعاجم) مثالا يحتذى ومرجعاً يحتكم إليه ونحن أهل العربية الذين تشربناها بالفطرة والسليقة وكأنه يشير من طرف خفي إلى قول المتنبي:

وإنما الناس بالملوك ولا تفلح عرب ملوكها عجم

١٠. يقول شاكر: "**وهذه الخلاصة التي ختمت بها مقدمتي ومنذ أولها –نتيجة لأشياء ذكرتها، وأطلت في ذكرها وأسبابها ونتائجها، وعلى رأسها قصتي أنا مع الدكتور طه حسين في الجامعة، حين سمعت بأذني من فم الدكتور طه كلاما كنت قد قرأته بالإنجليزية في إحدى المجلات، كتبه مستشرق غريب الشكل والعقل والأطوار يقال له "مرجليوث"؛ فإذا الذي أسمعه، هو نفس ما قرأته قبل أن أسمع ما سمعت، ولكني سمعته بلفظ عربي مُسْتجاد، وبإلقاء أستاذ بارع...**".

النموذج (١٠) يسخر فيه شاكر من مستشرق بعينه هو "مرجليوث" ويجمع فيه السخرية من "الشكل" بالسخرية من "عقل مرجليوث" و"أطواره"، ولو تأملنا كافوريات المتنبي ففي الشكل نجدها عن كافور:

إن امرءاً أمة حبلى تدبره  لمستضام سخين العين مفؤود

ويصفه بالحمق والنوك في أبيات مشهورة معروفة.

لوجدناها منصبة على الهجاء في هذه الجوانب الثلاثة (الشكل والعقل والأطوار)، وهذا ما يجعلنا نميل إلى أن تقنيات السخرية عند شاكر من المستشرقين متأثرة بشكل كبير بكافوريات المتنبي، وقد يلاحَظ أن استخدام عبارة "يقال له مرجليوث" فيها حطّ من شأن هذا المستشرق المعروف، وإيحاء بأنه مجهول العين أو الحال مثلما يقال في الاستعمال العربي المعتاد "المدعو"(١٦).

**الخاتمة**

إن السخرية في مقالات محمود محمد شاكر ليست مجرد تنفيس لغوي أو ترف بلاغي، بل هي ممارسة واعية، يُوظّف فيها الكاتب أدوات البيان العربي في مواجهة سلطة رمزية يتجسد فيها المستشرقون بوصفهم أعلاماً ممثلين للهيمنة المعرفية الغربية. وقد كشف تحليل النماذج المختارة عن تدرّجٍ في توظيف السخرية: من التهكم المبطّن إلى الهجاء الصريح، ومِن الهجاء المجمل، إلى التبكيت المفصل، ومن السخرية المفارِقة إلى الكاريكاتير البلاغي، وكلها تلتقي في استراتيجيةٍ مقاوِمة تُفكك رمزية العالِم المستشرق وتُسقِط عنه هالة الموضوعية والمعرفة الحقيقية.

ومن المثير للاهتمام أن هذه السخرية تحمل آثاراً واضحة من تقاليد الهجاء العربي، وعلى رأسها سخرية المتنبي من كافور؛ إذ ورد في مقالات شاكر هزء من الشكل والعقل والطبع لدى المستشرق المتعالِم الجاهل العاجز الجمّاع اللّمام، تماماً كما فعل المتنبي حين جعل من هجائه لكافور مشروعاً بلاغياً لكشف زيف سلطته، لا شتيمة عرضية. وبذلك، يمكن القول إن شاكر استثمر نموذج هجائيات المتنبّي لا بوصفه مصدر إلهام جمالي فقط، بل تقنية بلاغية قديمة في خدمة مشروع مقاومة حديث.

**الهوامش**

(١) مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠٠٨م، ج١، ٥٩٢.

(٢) ‘Analyses de l’ironie’, Poétique, vol. ٣٦, no. ١, ١٩٧٨, p. ٤٧٩. نقلًا من مقالة: بلاغة السخرية الأدبية، محمد العمري، مجلة علامات، ج٢٠، م٥، صفر ١٤١٧هـ- يونيو ١٩٦٦م، ص٢٢.

(٣) انظر: دليل الناقد الأدبي. المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٢م، ٢٠٢-٢٠٦.

(٤) ‘Satire and the Limits of Literary Theories’, Critical Quarterly, vol. ٥٥, no. ٣, ٢٠١٣, pp. ٢-١٦.

(٥) انظر: دفاتر السجن: مختارات. ترجمة: معز مديوني وصبا قاسم، منشورات الجمل، ط١، ٢٠٢٣م، ١٥٠-١٥٥.

(٦) المرجع نفسه، ١٠٩.

(٧) جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر. جمع وقراءة وتقديم: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، ط١، ٢٠٠٣م. ج١، ١٢٤.

(٨) المصدر نفسه، ج١، ١٢٥.

(٩) المصدر نفسه، ج١، ١٢٦.

(١٠) المصدر نفسه، ج١، ١٢٧.

(١١) المصدر نفسه، ج١، ١٢٧.

(١٢) المصدر نفسه، ج١/ ٥٣٨.

(١٣) المصدر نفسه، ج٢/ ٩٩٠.

(١٤) المصدر نفسه، ج٢، ١/ ٩١.

(١٥) المصدر نفسه، ج١، ١١٩.

(١٦) المصدر نفسه، ج٢، ١٢٤٦.

## المصادر والمراجع

**شاكر، محمود محمد.**

جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر. جمع وقراءة وتقديم: عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، ط١، ٢٠٠٣م.

**ابن فارس، أحمد بن فارس.**

مقاييس اللغة. تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، ط٢، ٢٠٠٨م، ج١.

**العمري، محمد.**

"بلاغة السخرية الأدبية"، مجلة علامات، ج٢٠، م٥، صفر ١٤١٧هـ/ يونيو ١٩٩٦م.

**.Muecke, D.C**

‘ Analyses de l’ironie’, Poétique, vol. ٣٦, no. ١, ١٩٧٨, p. ٤٧٩. نقلًا من مقالة: بلاغة السخرية الأدبية، محمد العمري، مجلة علامات، ج٢٠، م٥، صفر ١٤١٧هـ- يونيو ١٩٦٦م.

**البازعي، سعد، والرويلي، ميجان.**

دليل الناقد الأدبي. المركز الثقافي العربي، ط٣، ٢٠٠٢م.

**.Phiddian, Robert**

‘ Satire and the Limits of Literary Theories’, Critical Quarterly, vol. ٥٥, no. ٣, ٢٠١٣, pp. ٢–.١٦

**غرامشي، أنطونيو.**

دفاتر السجن: مختارات. ترجمة: معز مديوني وصبا قاسم، منشورات الجمل، ط١، ٢٠٢٣م.